الفصل الخامس
الاجتهاد والاستحسان

• لدينا أصول في الفقه الإسلامي نعتمد عليها في الأحكام، منها:

(الكِتَابُ والسُّنَّة والإجماع)، لا مجال في التجديد فيها؛ لأنها كلها تصب في مصالح الأمَّة.

وسبعةٌ غيرُها، وهي: (القياس، والمصالح المرسلة، والعرف، وشرع مَنْ قبلنا إذا صحَّ سندُه ومتنُه ولم يكن في شرعنا ما ينسخه، وقول الصحابي، والاجتهاد، والاستحسان).

وكل هذه المصادر لها ضوابط وقواعد يستند إليها مِنَ القُرآن والسُّنَّة.

وهناك شروط للمجتهد والمفتِي بها، منها:

• أنْ يكون على عقيدة صحيحة سليمة كعقيدة أصحاب النَّبيِّ ﷺ، حتى يستطيع تعليم الناس التوحيد، ويحذّرهم من الفرق والأحزاب والطُّرُق وأصحاب البدع والأهواء.

• أنْ يكون عالمًا بكتاب الله تعالى، حافظًا له، وبسُنَّة نبيِّه ﷺ، مِنَ المجمَل والمقيَّد، والناسخ والمنسوخ، والخاصِّ والعام، حافظًا له، قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت:٤٩]، حتى يستطيع جمع الأدلة في المسألة الواحدة.

• أنْ يكون عالمًا بالتفسير وقواعِده، وأسباب النزول حتى يتجنَّب تأويل الأدلة تأويلًا فاسدًا.

• أنْ يكون عالمًا بالحديث النَّبوي والقُدْسي، عالمًا بأصول علم الحديث من

معرفة الأسانيد والرجال، والمتون، عالمًا بالصحيح والضعيف. حتىٰ يتسنَّىٰ له التثبُّت من الصحيح، ويتجنَّب الضعيف والموضوع.

• وأنْ يكون عالمًا بالفقه، ومصادر الأدلة، ومدىٰ حُجيَّة الدليل، وهل يحتمل التأويل أم لا؟ وأن يكون عالمًا بقواعد الفقه الكلية والجزئية، وأصول الفقه، والمجمَل والمفصَّل، والخاصِّ والعامِّ، والمطلَق والمقيَّد، والناسخ والمنسوخ، وأن يكون متلقِّيًا هذه العلوم علىٰ أيدي العلماء والمشايخ.

• أنْ يكون عالمًا بلسان العرب؛ لأنَّ القرآن نزل بلغتهم ولسانهم حتىٰ يتجنَّب صرف المعاني لغير مُرادِها ولا يتَّبع المتشابَه.

• أنْ يكون صحيح العقل، صادقًا في النقل، يذكر ما له وما عليه.

• أنْ يتثبَّت مِنْ قوله ولا يَتعجَّل به.

• أنْ يَستمِع إلىٰ مَنْ خالفَه، عالمًا بفنِّ الحوار وأصوله، مستمِعًا لأدلَّة خصومه.

• أنْ يكون مُنصِفًا مِنْ نفسه، مجتهِدًا في البحث، لا يتحدَّث إلَّا بدليل صحيح ثابت.

• أنْ يكون طيِّب السيرة والسلوك، غير مُتَّهمٍ في دينه أو عِرضه، بعيدًا عن الهوىٰ والبدعة.

❁ ❁ ❁

• مِنْ هذه الشروط نستطيع معرفة مَنْ يكون أهلًا لخِدمَة العلم والفتوىٰ والتدريس يُعلِّم الناس هذه العلوم، ويقرِّبها لهم في ثوبٍ مُناسب دون تبديل أو كتمان للحقّ، وليس المجال مفتوحًا لكل مَنِ ادَّعىٰ أنه أديب أو صحفي أو مذيع

أو كاتب، أو من عوام الناس.

• فالعلماء فقط هم ورثة الأنبياء، وأصحابُ السَّنَدِ المتواتر إلى يوم الدين، وكان وما يزال تزكيةُ طلَّاب العلوم الشرعيَّة مِنْ قِبل العلماء إذا أراد أنْ يُدرِّس للناس، أو يشرح لهم تفسيرًا للقرآن والسُّنَّة أوفقهًا، أو حتى يُعلمهم تجويدًا لكتاب الله ﷻ، فكان لا يمكن أنْ يتصدى للإفتاء أو الاجتهاد أو التدريس إِلَّا بعد أن يُجاز مِنَ الشيخ، ويجاز بالسَّنَدِ.

وهذا لا غَرابة فيه؛ فنحن الآن نجد الطبيب مثلًا يدرُس اثني عشر عامًا متواصلة مِنَ الابتدائي ثم المتوسط ثم الثانوي، ويشترط في هذه السنوات التفوق والذكاء والتحصيل، والسهَر الطويل، والعمل الدءوب؛ لكي يحصل على المجموع المناسب لدخول كلية الطبّ، ثم يدرسُ ستَّ سنوات أخرى وبعدها سَنة التدريب (الامتياز) ليكتمل له مشوار تعليمي طوله تسعة عشر عامًا، ثم يسعى إلى دبلومة في التخصُّص أو للحصول على العالية (الماجستير)، أو العالمية (الدكتوراه)؛ حتى يكون طبيبًا ماهرًا حَاذِقًا، وقد يَبحث عن الزمالة، يعني مشوار نجاح الطبيب الناجح في طلب علوم الطبّ قد يصل إلى أكثر من ثلاثين عامًا يحق له بعدها أنْ يُفتي في الطب بقلبٍ مطمئن، وقولٍ سديد، ويُدلى برأيه في المحافل والمؤتمرات الدولية والمحلية، وقد يتواصل معه مشوار العلم والدراسة إِلى أنْ يموت لكي يحصل على كل جديد في هذا العلم.

وهكذا طالب الهندسة، والعلوم وسائر التخصصات العلمية.

• فلماذا نُفرِّقُ بين العالِم ـ الذي بذل عمره في طلب العلوم الشرعيَّة، وحمايتها

بالعبادات والخشية مِنَ الله تعالىٰ؛ لأنَّ العلم الشرعي ليس فقط معرفة الرواية والدراية وإنما لا بُدَّ معه مِنْ خشية وخوفٍ مِنَ الله تعالىٰ، لكي لا يُصيبه العُجب (وهو آفة العلماء)، أويشترىٰ به ثمنًا قليلًا، أو يُؤثر به دنيا، أو هوًىٰ متَّبع ـ وبين طُوَيْلِبِ علم جلس ساعة يتعلم ثم سوَّل له الشيطان ـ لعنه الله ـ أن يتصدَّىٰ لمجلس العلماء والفقهاء والفتوىٰ، فيصح فيه قول النَّبي ﷺ أنه من الرؤوس الجهَّال الذين إذا سُئِلوا أفتَوْا بغير علمـ فضلُّوا وأضلّوا.

• فهل يستوي هذا العالِم الذي أنفق عمره في تحصيل العلوم الشرعيَّة، ولا يزال يبحث ويقرأ ويتعلَّم ويتتلمذ علىٰ أيدي العلماء والمشايخ، مع غيره مِنَ الدُّخَلاء علىٰ هذا العلم الشرعيِّ، وحتىٰ من طلاب العلم في المعاهد الشرعية أو الأزهرية، والذي كان حريصًا علىٰ النجاح والحصول علىٰ المؤهل فقط، وكذلك من سعىٰ للإجازة طلبًا للشهرة أو السفر أو الوظيفة فقط.

أصبحنا اليوم في فوضَىٰ علميَّة، العامل، والمزارع، والصانع، والتاجر، والمِهَنِيّ، والطبيب، والمهندس، والباحث، كلهم لا يتورعون عن الإفتاء في الدين، والاعتزاز برأيه، والمجادلة عليه.

• تمتاز أُمَّة الإسلام بأنها أمَّة العلماء، قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣].

وهُمْ أهلُ الحلِّ والعَقد (وهم مجموعة مِنَ العلماء والأمراء والخبراء) مهمَّتُها بحثُ قضايا الأمَّة والاجتهاد فيها، وهُم الفقهاء في الأمَّة متعاونين مع الخبراء في شتىٰ الاتجاهات، يتولَّون قضايا الأمَّة، ويقدِّمون لشعوبهم الحلول النفعيَّة لهم،

وفي ذلك الخير كله للأمَّة الإسلامية، كما يحدث الآن في بعض المجامع الفقهية.

وهؤلاء المجتهدون لهم الأجر في كل الأحوال؛ إنْ أخطئوا فلهم أجرٌ واحد، وإنْ أصابوا فلهم أجران، كما أخبرنا بذلك النبي العدنان ﷺ.

وأنا اعتقد أنَّه إذا اجتهد غيرهم فأخطأ فعليه وزران؛ لأنه تعدىٰ حدودَه، وخالف قول ربِّه (جلَّ وعلا)، وتجرَّأ علىٰ الله ورسوله.

وما حدث في موضوع صلاة العصر في غزوة بني قرَيظَة، وخلاف أصحاب النَّبيّ ﷺ مع أنَّهم ﷺ أهل اجتهاد وفِقه وعلم، ولذلك رَدُّوه إلىٰ رسول الله ﷺ.

❁ ❁ ❁

◘ ونحن أمام مسألتين:

الأولى: حاجة الأمة إلىٰ الاجتهاد، وذلك لمسايرة المستجدَّات والتطوُّرات السريعة في عصر العولمة فيما لم يَرِدْ فيه نصٌّ من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

الثاني: معرفة مَنْ أحقُّ بهذا الاجتهاد، ومَنْ هو أهلٌ له، فهىٰ مسألة ضوابط وحماية مِنَ الفوضى العلميَّة والفكرية التي يحيا فيها الناس هذه الأيام.

فحاجة الأمَّة إلى العلماء، كحاجة الطعام إلى الملح، والعلماء هم امتداد لنور النبوَّة، وإذا خلت الأمَّة منهم وقعت في ظلمات الفتن.

وما تركه المجتهدون الأوائل في التراث الفقهي ضخم وعظيم ويفي بكثيرٍ مِنَ احتياجات الأمَّة، وعلىٰ المجتهد في هذا العصر أنْ يُقدِّم للأمَّة مثلما قدم سلفُه الصالح مِنْ قَبل، يَعي جهودهم وعلومهم ثم يُجيد فهمها ودراستها، ثم يحسن عرضها بأسلوب شيق وجذاب لمن حوله.

❁ ❁ ❁

وقفة

• لا شَكَّ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قد دمغ التطرُّف والتسيُّب، فكان خصيمَ كلّ تقيٍّ جاهلٍ، أو عالمٍ متكبِّرٍ فاجر، أو نفسٍ نقيَّة في بدَنٍ قذِر، أو نفس فاسدة في جسم مهنَدم، أو عدالة لا تُساندها قوة، أو قوة باغية ظالمة صادَّة عن سبيل الله.

ولم يعترض ﷺ على الغنَى والوفرة، لكنه كان يُصرُّ على الفضيلة مع الغنَى، ويرفض الفضيلة العُريانة العاجزة التي ليس لها مَنْ يحميها.

• «ليس المسلمون قديسين حتى عندما يُصلُّون ويصومون، إنهم أناس عاديون رجالًا ونساءً، لكنهم مؤمنون يشاركون في الحياة الواقعية، ولا يعتزلون في الكهوف بعيدًا عن المجتمع، ولا يُهملون أنفسهم، ولا يُسلِّمون أنفسهم ليكونوا تحت رحمة أعدائهم، ولا يرفضون التمتُّع بالطيبات التي رزقهم الله بها، يَحرِصون على الحرية المادية، ولكن لا يرضون بأنْ يكونوا عبيدًا لها، يؤمنون بأنَّ هذه الحياة الأرضية ليست هي الحياة الوحيدة، ومع ذلك لا يزالون غير راغبين في الانسحاب منها».

• «ليست الصلاة مجرد تعبير عن موقف الإسلام مِنَ العالم، وإنما هي أيضًا انعكاس للطريقة التي يريد الإسلام بها تنظيم هذا العالم».

«د/ علي عزت بيجوفيتش» في كتابه: الإسلام والغرب»

❁ ❁ ❁

obeikandl.com